صورة الآخر في التراث العربي الإسلامي
(العلاقات مع الإفرنج في رحلة ابن جبير)
(٥٧٨-٥٨١هـ/١١٨٢- ١١٨٥م)

أستاذ مشارك
د.عيسى محمود عسود العزام
جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية/ إربد
قسم العلوم الإنسانية

الخلاصة:

تناول البحث علاقات المسلمين مع الإفرنج من خلال رحلة ابن جبير الذي يُعد شاهد عَيان على العصر ، وعبر عن وجهة نظر الرأي العام الإسلامي تجاه الغزاة الإفرنجة للمشرق الإسلامي ، وركزت الدراسة على صورة الإفرنج عند المسلمين ، والعلاقات الحربية والسلمية بين الطرفين ، وأوضاع المسلمين في المدن الشامية وصقلية الخاضعة للغزاة الإفرنجة ، وبعض احتفالات الإفرنج التي شاهدها،وتوصل البحث الى تسجيل الملاحظات الآتية:

١- عبرّ ابن جبير ،أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت :٦١٤هـ /١٢١٧م) عن وجهة نظر الرأي العام الإسلامي عند حديثه عن الغزاة الإفرنجة لديار الإسلام ، فقد وصفهم بـ:الأعداء ، والكفار ، والمشركين ، والطغاة ، والخنازير؛ لِما فعلوه من قتل وانتهاك للإعراض وسلب ونهب ، وتدنيس للمقدسات والأماكن الدينية في المدن الإسلامية ، ودعا الله تعالى إلى نصرة الإسلام والمسلمين ، وتدمير الغزاة ، وهذه الصورة نجدها عند معظم المؤرخين المسلمين المعاصرين لمرحلة الحروب الصليبية .

٢- وصف ابن جبير بعض المواجهات الحربية بين المسلمين والإفرنج ، مثل غزو الإفرنج للحجاز ، ومحاولات السلطان صلاح الدين الأيوبي إسقاط بارونية الكرك الإفرنجية ، كذلك تحدث عن معاملة الأسرى .

٣- إن شدة القتال بين المسلمين والإفرنج لم تنعكس على أحوال الرعية والتجارة ، فالتجارة كانت مزدهرة بينهما؛ لان مصلحتهما تقتضي ذلك ، فطرق التجارة العالمية الرئيسة إلى الهند والصين تمر عبر ديار الإسلام ، واحتل الإفرنج أبرز مراكز التجارة العالمية في الساحل الشامي مثل:عكا وطرابلس.

٤- إن أوضاع المسلمين في المدن الشامية الخاضعة للاحتلال الإفرنجي كانت مستقرة ، فقد تعامَلَ الإفرنج مع المسلمين بتسامح وعدالة ،الى درجة أن ابن جبير خشي افتتان المسلمين بالحكم الإفرنجي ، وكذلك كان حال المسلمين صقلية المحتلة من الإفرنج .

المقدمة:

تعد دراسة كتب الرحلات ذات أهمية بالغة في دراسة التاريخ؛لأنها تتضمن معلومات تاريخية وحضارية مهمة باعتبارها شاهد عيان على عصر ما، لذلك نجد فيها مادة علمية يندر في بعض الأحيان وجودها في كتب التاريخ.

تتصدى هذه الدراسة إلى موقف أحد الرحالة الأندلسيين الذي قدم إلى بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية، وهو:ابن جبير،أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني الأندلسي ،وقد دوَّنَ في

رحلته:"تذكرة بالأخبار،عن اتفاقات الأسفار، المعروفة بـــ:رحلة ابن جبير*، يومياته التي تناول فيها العديد من الجوانب: السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية لبلاد الشام في عصر الحروب الإفرنجية ، وتأتي أهمية هذه الدراسة بأن ابن جبير دخل بعض المدن الشامية الخاضعة للاحتلال الإفرنجي ووصفها، وتناول أوضاع المسلمين فيها وعلاقاتهم مع الإفرنج ، ثم تحدث عن العلاقات الحربية والسلمية بين المسلمين والإفرنج في بلاد الشام؛ لذلك كانت أحداثها عبارة عن واقع عاشهُ ابن جبير، وسجلهُ وفق رؤية نافذة وملاحظة دقيقة وواعية بأسلوب أدبي جميل.

ابن جبير :

ولد الرحالة ابن جبير في بلنسية [١]، في الأندلس سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، ودرس علوم القرآن والحديث والفقه، وقامت شهرته في التراث الإسلامي من خلال رحلته التي عُرفت باسمه ، والذي دَوَّن فيها خلاصة تجاربه ومشاهداته للبلاد التي زارها في:شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام والحجاز والعراق وبعض جزر البحر المتوسط.

وقد استغرقت رحلته عامين وثلاثة أشهر ونصف[٢]، بدأت في شوال سنة ٥٧٨هـ/يناير ١١٨٣م ، وانتهت في محرم سنة ٥٨١هـ/أبريل ١١٨٥م ، وتوفي سنة ٦١٤هـ /١٢١٧م، وقد سجل فيها بعض أخبار الإفرنج، والعلاقات الإسلامية –الإفرنجية خلال تلك المدة.

صورة الإفرنج عند ابن جبير

إن الحرب وعلاقات المواجهة الحربية تنعكس على لغة الشارع ومشاعر الأهالي، وتكون واضحة في لغة الخطاب اليومي؛ لذلك نلاحظ أن إبن جبير المعاصر لمرحلة حروب الإفرنجة،عَبّرَ عن وجهة نظر المجتمع الإسلامي بكل وضوح عند ذكره للإفرنج في أثناء رحلته، فقد وصفهم بـــ:الأعداء، وكرّرَ هذه العبارة دائماً عند ذكره للإفرنج ، فعند حديثه عن دور أهل مدينة حمص في قتال الإفرنج،قال: "وأهل هذه البلدة موصفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم إياه، وبَعدهم في ذلك من أهل حلب"[٣]،فكان وصفه واضحاً لأهل حمص بأنهم أهل نجدة؛لأنهم شاركوا في صد العديد من الغارات الإفرنجية التي تعرضت لها أعمال حمص .

وعند حديثه عن حصن الأكراد[٤]أحد معاقل الإفرنج قرب حمص، قال: "وما ظنك ببلد حصن الأكراد... وهو معقل العدو، فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذا يطير منه شراره". وعند حديثه عن عكا قبل سقوطها بيد الإفرنج سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م قال: "ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد". [٥]

وعندما غزا الإفرنج بقيادة أرناط[٦] صاحب بارونية الكرك الصليبية الحجاز سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م، وتحدث عن نجدة السلطان صلاح الدين الأيوبي لها، وإرساله أسطوله من مصر للذب عنها (كما سنبين لاحقاً)، وصف الإفرنج بـــ:العدو،وفي ذلك يقول: "فلحقوا [أي الجند الإسلامي] العدو وهو قد قارَبَ النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم.وكانت آية من آيات العنايات الجبارية".[٧]

ووصف المناطق والمدن الإسلامية في بلاد الشام الخاضعة للاحتلال الإفرنجي بأنها معاقل الأعداء، ودعا الله تعالى أن يدمرها وبخاصة أن صبغة الإفرنج قد غلبت عليها بعد تحويل معظم مساجدها إلى كنائس، فعند حديثه عن حصن تبنين[٨]قال:" ورحلنا من تبنين دمرها الله"[٩]. وعند حديثه عن عكا المحتلة، قال: "مدينة عكة دمرها الله"[١٠]. ووصف مدى الحزن والحسرة الإسلامية لسقوطها،بقوله: "فبكى لها الإسلام ملء جفونه، وكانت أحد شجونه، فعادت مساجدها كنائس، وصوامعها مضارب للنواقيس "[١١] ،ودعا على عسكر الإفرنج بالتدمير،بقوله:((...يجتمع العسكر،دمره الله)) [١٢]، ولم يحدد ابن جبير عدد المساجد التي تم تحويلها إلى كنائس .

ووصف الإفرنج بأنهم: "أعداء الله الكافرين"[١٣]، وكرر هذه العبارة غير مرة بشكل آخر،فقد وصف غليام ملك جزيرة صقلية،بأنه: "كافر بالله"[١٤]. ووصف المدن الإسلامية الخاضعة لهم بأنها

تستعر كفراً وطغياناً، وفي ذلك يقول عن عكا: "هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام... تستعر كفراً وطغياناً، وتفور خنازير وصلباناً، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجساً وعذرة "[١٥].

كذلك وصف الإفرنج بأنهم: مشركون، فعند حديثه عن جبل الطور، قال: "والله يعيده إلى أيدي المسلمين ويطهره من أيدي المشركين"[١٦].

وفي حديثه عن أمراء وملوك الإفرنج في بلاد الشام،وصفهم بـ:الكَفَرة والخنازير، فعند ذكره لحصن تبنين قال: "وصاحبته خنزيرة تُعرف بالمِلِكة، وهي أم الملك الخنزير صاحب عكة، دمرها الله"[١٧]، ووصف ملك عكا في مكان آخر،بأنه: "كافر بالله"[١٨]. ثم وصفه في مكان آخر،بقوله[١٩]: "وهذا الخنزير صاحب عكة المسمى عندهم بالملك، محجوب لا يظهر، وقد ابتلاه الله بالجذام، فَعجّل له سوء الانتقام، وقد شغلته بلواه في صباه، عن نعيم دنياه، فهو فيها يشقى، **ولعذاب الآخرة أشد وأبقى**"[٢٠] ،ثم لعنهُ في مكان آخر،بقوله: " الملك الملعون"[٢١]، ولعل هذا الموقف عند ابن جبير على الإفرنج وملوكهم أمر طبيعي؛لاحتلالهم بلاد الإسلام، وتدنيسهم للمقدسات، وكثرة القتل والسلب والنهب والحرق التي ارتكبوها عند احتلالهم لمدن الشام الواحدة تلو الأخرى، وهذا الحقد الذي أبداه ابن جبير في رحلته هو في الواقع يمثل الرأي العام الإسلامي.

وفي إطار حديثه عن القتال بين المسلمين والإفرنج، كان يظهر دائماً الفرح والسرور لنصر المسلمين، ويحمد الله على ذلك، ففي أعقاب فشل حملة أرناط على الحجاز سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م (كما سنبين لاحقا)، قال: "فآخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه... وكفى الله بجميل صنعهِ الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً، والحمد لله رب العالمين"، ووصف ما قام به الإفرنج في البحر الأحمر وعيذاب[٢٢] من القتل والسلب والنهب، بقوله: "وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام"[٢٣].

وعند حديثه عن استعدادات السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧هـ/ ٥٨٩هـ/١١٧١م-١١٩٣م) لمنازلة الكرك، دعا الله تعالى أن ينصره،بقوله: "فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته"[٢٤]. وعندما تحدث عن استرجاع مدينة بانياس[٢٥]سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م، من قبل السلطان نور الدين زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦- ١١٧٣م) تَرّحم عليه، بقوله:" رحمهُ الله". بينما لم يترحم على أمراء الإفرنج وملوكهم بل كان دائماً يلعنهم، ويصفهم بـ:الخنازير الكَفَرة، وكان دائماً يدعو الله تعالى إلى إعلاء كلمة الإسلام، بقوله:" والله يعلي كلمة الإسلام بمنهِ"[٢٦].

وقد ضاق ابن جبير ذرعاً بالإفرنج وأخلاقهم؛ لذلك ندم حتى على دخوله المدن الشامية الخاضعة لهم، وحذر المسلمين من دخولها إلا للمرور منها فقط ، لما فيها من المنكرات، بقوله:" وليست له عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً، ...لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم:منها الذلة والمسكنة الذميمة، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره، وأعلى خطره، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة،والتصرف بين الخنازير، وجميع المحرمات، الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده، فالحذر الحذر من دخول بلادهم"؛ لذلك دعا الله تعالى أن يغفر له هذه الخطيئة،بقوله:" والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم، ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم"[٢٧].

وضاق ابن جبير ذرعاً حتى من صحبة المسالمين من نصارى الفرنج ، وهم حجاج بيت المقدس في طريق عودته بحراً من عكا إلى الأندلس بقوله:" أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة ومأمول التسهيل والصنع الجميل بمنهِ وكرمه"[٢٨].

قدمت رحلة ابن جبير صورة واضحة ومعبرة عن موقف الرأي العام الإسلامي من الغزو الإفرنجي لبلاد الإسلام، وبخاصة مصر وبلاد الشام من خلال ما تعكسه عباراته من حنق وحقد تجاههم، وإحساسه بالمرارة على احتلالهم لكثير من المدن الشامية وتدنيسهم لها، وبخاصة أنهم حاولوا

تحويلها إلى مدن مسيحية،وذلك بتحويل الكثير من مساجدها إلى كنائس كما فعلوا في عكا وصور[٢٩]، بل أن ابن جبير انفرد بذكر حادثة تنَصُر رجل مغربي في البلاد الخاضعة لهم،بقوله:"وكان قد صَحِبَ النصارى وتخلق بكثير من أخلاقهم فما زال الشيطان يستهويه الى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقامنا بصور"[٣٠].

القتال مع الإفرنج:

تحدث ابن جبير من خلال رحلته_أحياناً_عن العلاقات الحربية بين المسلمين والإفرنج ،عند ذكره بعض المدن الشامية التي زارها والتي كانت تحت الاحتلال الإفرنجي،فذكر أن جبل لبنان هو حد فاصل بين بلاد المسلمين والإفرنج،إذ قال:" لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، أعادها الله للمسلمين ، وفي صفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد، هو للإفرنج ويُغيرون منه على حماة وحمص، وهو بمرأى العين منهما[٣١].وأشاد إبن جبير بدور أهل مدينتي حمص وحلب في قتال العدو الإفرنجي [٣٢].

وعند حديثه عن مدينة صور بَيَّن أنها سقطت بيد الإفرنج سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م، بعد قتال شديد مع سكانها وجندها، بل ذكر رواية (نقلاً عن أحد سكانها) لم نجدها في المصادر التاريخية، وهي أن سكانها وضعوا خطة حربية للدفاع عنها حتى الموت،بقوله: "وأنهم حملتهم الأنفَة على أن هموا بركوب خطة عصمهم الله منها، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءَهم في المسجد الجامع ويحملوا السيف عليهم غِيرةً من تملك النصارى لهم،ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ويصدموهم صدمة صادقة حتى يموتوا على دم واحد ويقضي الله قضاءه. فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم "[٣٣].ولا شك أن هذه الرواية تدل على مدى الحماس للجهاد في سبيل الله في بلاد الشام؛دفاعاً عن دينهم وأعراضهم وبلادهم أمام الغزو الإفرنجي الغاشم، الذي استباح معظم المدن التي احتلها.

وبعد القتال الشديد والذي استمر لسنوات اضطر سكانها إلى تسليمها للإفرنج ،شريطة السماح لمن فيها من المسلمين بمغادرتها، بما يقدرون عليه من أموالهم ورحالهم، وفارقهُ أهله وتفرقوا في البلاد وحملوا ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه"، ولم يتعرض الإفرنج إلى أحد منهم ولم يبق إلا الضعيف العاجز عن الحركة[٣٤]، وذكر ابن جبير أن بعض سكان صور عادو اليها،بقوله:"ومنهم من استهواه حب الوطن فدعاه إلى الرجوع و السكن بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها"[٣٥].

تحدث ابن جبير، عن بعض المواجهات الحربية بين السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأرناط صاحب بارونية الكرك الإفرنجية،فذكر أن أرناط جهز في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م قطع لعدد من المراكب في الكرك ونقلها على ظهور الجِمال إلى أيلة[٣٦]، وجمعها في أسرع وقت وشحنها بالمقاتلة وأبحر في البحر الأحمر قاصداً عيذاب، ودمر فيها عدداً من المراكب، وسيطر على قافلة تجارية ضخمة كانت قادمة من قوص[٣٧]إلى عيذاب، وقتل جميع من فيها، وسيطر على مركبين قادمين بتجار من اليمن، وأحرق أطعمة كثيرة في عيذاب كانت مُعّدةً لنقلها إلى أهل الحجاز من مصر ، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يُسمع مثلها في الإسلام[٣٨]. ثم أبحر نحو الحجاز قاصداً المدينة المنورة لإخراج رُفات الرسول (ص) من الضريح المقدس، ووصل إلى مسافة قريبة منها(المدينة) قدرت بمسيرة يوم ،وفي ذلك الوقت كان الأسطول الأيوبي بقيادة حسام الدين لؤلؤ[٣٩]،قد أبحرَ في البحر الأحمر على عجل للتصدي إلى أرناط، وقد وصف ابن جبير ذلك بقوله:"فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم، وكانت آية من آيات العنايات الجبارية، وأدركوهم... وقتلوا وأسروا"[٤٠].

وذكر ابن الأثير تفاصيل مطاردة الأسطول الأيوبي للإفرنج، بقوله: "فسار لؤلؤ مُجداً في طلبهم، فابتدأ بالذين على أيلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده، فقتل بعضهم، وأسر الباقي، وسار من وقته بعد الظهر بقص أثر الذين قصدوا عيذاب، فلم يرهم ... سار يقفوا أثرهم فأدركهم

بساحل الحوراء[٤١]فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك، خرجوا إلى البر، واعتصموا ببعض تلك الشِعاب، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرسانه ورجالته فظفر بهم، وقتل أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى "[٤٢]. واستطاع أرناط النجاة بصعوبة بالِغة وعاد إلى الكرك.

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٠هـ/ سبتمبر ١١٨٤ م، سار السلطان صلاح الدين الأيوبي بجنده من دمشق ونازلَ حصن الكرك، وحاصره حصاراً شديداً، مما دفع أرناط إلى الاستنجاد بالإفرنج بالشام، فجاءوا لنجدته من كل صوب، وحاولوا قطع خطوط الإمداد عن المسلمين، فلما علم السلطان بكثرة جموع الإفرنجة القادمة إلى الكرك، فكَّ الحصار عن الكرك، وسار إلى موضع من البلقاء يقال له :رأس الماء[٤٣]للتصدي لهم، ومنعهم من الوصول إلى الكرك، غير أن الإفرنج حادوا عن ذلك الموضع وسلكوا طريقاً وعراً، ذهب فيه أكثر دوابهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك، مما دفع السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى وضع خطة حربية أخرى سد بموجبها-على الإفرنج – معظم الطرق المؤدية إلى بلادهم، ولجأ إلى مهاجمة مدينة نابلس الخاضعة لهم، فاستولى عليها،وسبى كل من فيها من الإفرنج واليهود،وسيطر على جميع الضياع والحصون المجاورة لها،وبسط فيهم القتل والسبي،وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها من الأمتعة والذخائر والأثاث إلى غير ذلك ،وأطلق السلطان لجنده جميع ما اجتازوه من الغنائم،وعفى الجند على رسوم تلك البلاد التي مروا عليها من بلاد الإفرنج،وخلصوا عدداً كثيراً من أسرى المسلمين[٤٤]،ووصف ابن جبير تلك الحملة بقوله:"وكانت غزوة لم يسمع مثلها في البلاد... وكان مبلغ السبي آلافاً"[٤٥].وعاد السلطان إلى دمشق على أمل أن يعود إلى منازلة حصن الكرك لاحقاً،قال ابن جبير:" فالله يعينه ويفتح عليه بعزته وقدرته "[٤٦].

معاملة الأسرى عند الإفرنج والمسلمين:

أورد ابن جبير وصفاً مؤلماً لحال الأسرى المسلمين الذين شاهدهم بمدينة عكا الإفرنجية ،فالأسرى مكبلين بالحديد ، ويوكل لهم العمل في الخدمات الشاقة باعتبارهم عبيداً ،إذ قال :"ومن الفجائع التي يعانيها من حَلَ بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك، في أسواقهم خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة ولا يُغني الإشفاق عنهم شيئاً" [٤٧]،فالإفرنج كانوا يعاملون أسرى المسلمين معاملة قاسية ، وفي كثير من الأحيان كانوا يقومون بقتل الأسرى ، وهذا مافعلوه عند اقتحامهم معظم المدن الشامية ،مثل مدينة بيت المقدس ، ومعرة النعمان ...الخ .

أكد ابن جبير أن من طرق إطلاق سراح الأسرى من أيدي الإفرنج، هي الفداء بالمال ،فكان بعض أغنياء المسلمين وأمرائهم ينفقون الأموال الضخمة في هذا المجال. وفي هذا الصدد ذكر أن السلطان نور الدين زنكي انفق اثني عشر ألف دينار فداءً لأسرى المغاربة، الذين قدموا إلى المشرق للجهاد ضد الغزو الإفرنجي، كذلك ذكر أن رجلين من كبار التجار، وهما :نصر بن قدام، وأبي الدر ياقوت مولى العطافي ، كانا يبذلان أموالاً ضخمة كما يقول:" في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين.

وقد أفرد ابن جبير مساحة للحديث عن أسرى المغاربة، الذين كانوا بأيدي الإفرنج ،فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم، ولأن المغاربة غرباء على المشرق، فلا بُدَ من أن يُفَك أسرهم حتى يعودوا إلى بلادهم؛ لذلك أشار الى أن المسلمين في بلاد الشام نساءً ورجالاً تعاونوا لتوفير الأموال اللازمة لذلك، قائلاً" فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والخواتين من النساء وأهل اليسار والثراء إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل "[٤٨].

تحدث ابن جبير عن معاملة أسرى الإفرنج في بلاد المسلمين ،فذكر أنه شاهدَ عند قدومه إلى الإسكندرية في محرم سنة ٥٧٩هـ/ ابريل ١١٨٣م أسرى من الإفرنج راكبين على الجِمال ووجوههم

إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق، ،وذلك أنهم هاجموا بلاد الحجاز وكانوا عازمين على إخراج رفات الرسول(ص) من ضريحه المقدس ، لذلك قتلوا حتى يكونوا عبرةً لمن يُعتبر من الإفرنج[٤٩] .

من جهة اخرى لم يَقدِم السلطان صلاح الدين الأيوبي على قتل أسرى الإفرنج الذين أسروا في مدينة نابلس ونواحيها،وتم إدخالهم إلى دمشق سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م[٥٠]. ولم يذكر ابن جبير أي تعذيب أو تكبيل بالحديد لهم، وإنما تم إيداعهم في السجون لحين مقايضتهم بأسرى من المسلمين أو إطلاق سراحهم مقابل المال، وقد تباينت معاملة الأسرى عند المسلمين أو الإفرنج بين القتل أو الفداء بالمال أو تبادل الأسرى.

العلاقات الودية بين المسلمين والإفرنج:

قدّمَ ابن جبير وصفاً دقيقاً للعلاقات الإسلامية_الإفرنجية، وأوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الإفرنجي في المدن الشامية، فأكد أنه على الرغم من شدة الحرب بينهما، فإن ذلك لم ينعكس على أوضاع الرعية وحركة التجارة،بقوله:"ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً[٥١]، وهذا ما أثار تعجبه،قائلاً:"ومن أعجب ما يُحدّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ،وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم"[٥٢]، فكانت حركة القوافل التجارية من مصر إلى دمشق عبر بلاد الإفرنج نشطة، والتجارة من دمشق إلى عكا كذلك،مؤكداً ذلك بقوله:"والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب"[٥٣]، فالحروب لا تؤدي إلى توقف الحياة، بل أن مصلحة كلا الطرفين تكمن في استمرار التجارة ، وبخاصة أن مصر وبلاد الشام هي المراكز الرئيسة للتجارة العالمية في ذلك العصر، فالطريق الرئيسي لانتقال السلع الشرقية من الهند والصين إلى أوروبا كان عبرهما.

كانت رحلة ابن جبير من دمشق إلى عكا الإفرنجية برفقة قافلة تجارية ضخمة للإفرنج،وذكر أن بعض كبار تجار الساحل الشامي المحتل من الفرنج كانوا من المسلمين، فتحدث عن اثنين منهما ،هما: نصر بن قوام، وأبي الدر ياقوت مولى العطافي،اللذين كانت لهما قوافل تجارية ضخمة صادرة وواردة ببضائعهما،وقد وصفهما بقوله:" وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما ... وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير"[٥٤].

وكانت هناك ضرائب تفرض على التجار،ويتضح ذلك من قول إبن جبير:" وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى ايضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم "[٥٥]،وكان التجار الإفرنج يدفعون في بلاد الإسلام ضريبة العُشر فقط ، بينما التجار المسلمون يدفعون في بلاد الإفرنج ضريبتين هما: ضريبة الرأس ومقدارها دينار[٥٦]وقيراط ،وضريبة العشر ومقدراها قيراط وضريبة الرأس تجبى في حصن تبنين ، بينما تجبى ضريبة العشر في مدينة عكا المركز الرئيسي لجباية الضرائب في بلاد الإفرنج. وكان التجار يخضعون إلى تفتيش دقيق في عكا في مكان يعرف بـ:الديوان، وهو خان مُعَد لنزول القوافل،وصفه ابن جبير بقوله: " فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه ، وطلب رحل من لاسلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبؤءة فيه وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل"[٥٧]. ووصف مدينة عكا،بقوله:"هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط **الجواري المنشآت في البحر كالأعلام** [٥٨]، مرفأ كل سفينة، ...مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق"[٥٩].

من جهة أخرى تحدث إبن جبير عن أوضاع المسلمين الخاضعين للاحتلال الإفرنجي في بعض المدن الشامية، فذكر أن التسامح وسياسة الإعتدال غلبا على العلاقات الإسلامية- الإفرنجية، فعند زيارته لمدينة بانياس الخاضعة للمسلمين ذكر أن هناك حصناً يعرف بـ:هونين[٦٠]،والأراضي

الواقعة بينهما تزرع من كلا الجانبين ويتم تقاسم المحصول مناصفة،إذ قال:" وعماله تلك البطحاء[٦١]بين الإفرنج والمسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بـ:حد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغُلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها "[٦٢].

أكد إبن جبير أن جميع القرى والضياع التابعة لمدن الساحل الشامي أو المدن الداخلية بقي سكانها المسلمون فيها على الرغم من الاحتلال الإفرنجي لها، وأن الإفرنج كانوا يعاملون المسلمين معاملة تتسم بالتسامح والعدالة ، بل أن أوضاعهم تحت الاحتلال أفضل منها تحت سيطرة بعض حكام المسلمين ، فالأراضي لم تنتزع منهم،بل بقيت بأيديهم ولكنهم بالمقابل كانوا يدفعون للإفرنج نصف الغلال سنوياً ، وجزية رأس سنوية مقدارها دينار وخمسة قراريط ،وضريبة طفيفة على الأشجار المثمرة، وفي ذلك يقول إبن جبير: "ورحلنا من تبنين،دمرها الله، [باتجاه عكا]... وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم مع الإفرنج على حال ترفيه...وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدوها أيضاً، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل،رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع ، وقد أشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من اهل الرسائيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق، وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور الصنف المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله..."[٦٣].

وهنالك بعض الضياع الإسلامية الخاضعة للإفرنج كان رئيسها الناظر فيها من المسلمين ،لكن على الأرجح من الموالين للإفرنج ، فضمن حديثه عن ضيعة من ضياع عكا،قال إبن جبير: "ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الإفرنج على من فيها من عُمّارها من المسلمين"، وأن هذا الناظر–كما ذكر–قد ضَيّف جميع تجار القافلة التجارية التي هو برفقتها،ووصف ذلك بقوله:"فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة، وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزلهِ، وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم، فعمهم بتكرمته"[٦٤].

وتحدث ابن جبير عن قرية شرقي عكا تعرف بـ:عين البقر،فذكر أن محراب مسجدها بقي على حاله، ووضع الإفرنج شرقه محراباً لهم،إذ يقول: "فالمسلم والكافر يجتمعان فيه، يستقبل هذا مصلاه.وهذا مصلاه. وهو بأيدي النصارى مُعّظم محفوظ ، وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين"[٦٥]، وهذا ما أثار تساؤل ودهشة ابن جبير في غير موضع من رحلته.

وعندما زار إبن جبير مدينة صور وصف أحوال الإفرنج والمسلمين فيها، بقوله: " هي أنظف من عكة[عكا] سككاً وشوارع، وأهلها ألينَ في الكفر طبائع، وأجرى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم أسجح،ومنازلهم أوسع وأفسح،وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكة [عكا] أكبر وأطغى وأكفر"[٦٦].

كان المسلمون يشاركون الإفرنج أفراحهم وأعيادهم، فذكر أبن جبير أن مسلمي صور شاركوا الإفرنج في أحد الأفراح التي شاهدها في المدينة(كما سنذكر لاحقا). ووصف العروس وزيها وزي من يرافقها من النساء والرجال ، ومن حَضَر هذا الاحتفال البهيج [٦٧].

من جهة أخرى وصف إبن جبير وصفاً دقيقاً أوضاع المسلمين في جزيرة صقلية،التي سقطت بيد الإفرنج سنة ٤٨٤هـ /١٠٩١م ، وكيف كانت مظاهر التعايش بين المسلمين والإفرنج ، مؤكداً أن المسلمين فيها أُقروا على أملاكهم وضياعهم ومساجدهم وأسواقهم، لكن فُرضت عليهم اتاوة في فصلين من العام ،أي مرتين[٦٨]، لكنه لم يذكر مقدراها،واستمرت العلاقات بين المسلمين والافرنج على وفاق تام،إذ يقول:"وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون بالسلام علينا ويؤنسوننا، فرأينا من سياستهم ولين

مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الجهل"[٦٩]، وقد خشي ابن جبير أن يفتتن المسلمين بحسن معاملة الإفرنج فيتنصرون.

والمسلمون في الجزيرة لهم قضاتهم ، يعمرون أكثر مساجدهم بالصلاة فيها ويقيمون الصلاة فيها بأذان مسموع، ويحتفلون فيها في عيدي الفطر والأضحى ولكن كان يُحظر [يمنع] على المسلمين في بعض مدن الجزيرة أداء صلاة الجمعة، إذ يقول:"ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم"[٧٠]، ولم يذكر إبن جبير أسباب منع الخطبة عليهم.

ولعل ما أثار دهشة ابن جبير أن أي مسلم يجوز له التنصر ولا يجوز لأهله أو قضاته أو فقهائه محاسبته على ذلك ، ويحظر على الآباء منع أبنائهم أو بناتهم من اعتناق النصرانية، وفي ذلك يقول: "ومن أعظم ما مُني به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب على ابنه أو على زوجهِ أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفة تؤديه إلى التطارح في الكنيسة فيتنصر ويتعمد، فلا يجد الأب للإبن سبيلاً ولا الأم للبنت سبيلاً. فتخيل حال من يُمنى بمثل هذا في أهله وولده ويقطع عمره متوقعاً لوقوع هذه الفتنة فيهم! فهم الدهر كله في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال"[٧١].

ولكن بالمقابل كان يحظر على أي نصراني ترك دينه واعتناق الإسلام، ذكر ابن جبير أن كثيراً من النساء الإفرنجيات في قصر الملك غليام اعتنقن الإسلام سراً نتيجة صحبتهن الجواري المسلمات في القصر، كما أكد أنه التقى فتىً يعرف بـ :عبد المسيح من كُبراء ووجوه الإفرنج كان يتظاهر بالتنصر ، لكنه في واقع الحال كان معتنقاً للإسلام، وقد أفصح بذلك بقوله له،بما نصه: "أنتم مُدلون بإظهار الإسلام... ونحن كاتمون إيماننا، خائفون على أنفسنا، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سراً، معتقلون في مملكة كافر بالله، قد وضع في أعناقنا ربقة الرق، فغايتنا التبرك بلقاء أمثالكم من الحجاج، واستهداء أدعيتهم"[٧٢].

كذلك تحدث ابن جبير عن ملك صقلية غليام ومدى حرصه على حُسن معاملة المسلمين، حتى أن معظم رجال وخدم قصره كانوا منهم،قائلاً: "وشأن ملكهم هذا عجيب في حُسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الاسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى أن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم"[٧٣].

وكان الملك غليام يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته:"الحمد لله حق حمده"،وكانت علامة أبيه:"الحمد لله شكراً لأنعمه".[٧٤] وجميع جواريه وحظاياه وفتيانه وأهل عمالته من المسلمين، وكانت لهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية،فكان يقول لهم:" ليذكر كل أحد منكم معبودهِ ومن يدين به"[٧٥].

الاحتفالات عند الإفرنج:

حظي الجانب الاجتماعي عند الإفرنج باهتمام لدى ابن جبير، وفي هذا المجال وَصفَ حفل زفافٍ لعروس إفرنجية عند ميناء صور، وقد اتسم وصفه بالحيوية والتحفظ تجنباً لفتنة المسلمين، فقد ذكر أن الحفل حضره عدد كبير من رجال ونساء الإفرنج، وقد اصطفوا سماطين عند باب العروس، والأبواق والمزامير تُضرب، وخرجت العروس تتهاوى بين رجلين من أقاربها وهي ترتدي أفخر الملابس الحريرية، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة، وهي رافلة في حليها وحللها، وتسير العروس إلى بيت زوجها فالرجال أمامها والنساء من ورائها والجميع يرتدي أفخر الملابس ،وقد أقيمت وليمة بمناسبة الزفاف حضرها المسلمون من سكان صور إلى جانب الإفرنج[٧٦].

كذلك أورد وَصفَ مناسبة اجتماعية أخرى عند الإفرنج، فذكر أنه في ليلة الرابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٠هـ / أول يوم من نوفبر سنة ١١٨٤م ، بينما كان مبحراً مع الإفرنج من عكا إلى صقلية احتفل الإفرنج بعيد (لم يذكر اسمه) ، وبهذه المناسبة حمل كل شخص شمعة مضيئة في يده

سواء كان من الرجال أو النساء وحتى الأطفال، حتى أن المركب يُزهِر كله أعلاه وأسفله سُرُجاً متقدة، وفي ختام الاحتفال تقدم القسيس للصلاة بهم ووعظهم وذكّرهم بشرائع دينهم(٧٧).

ووصف إبن جبير عيداً آخر للإفرنج، هو (عيد الميلاد) الذي احتفوا به رجالاً ونساءً، وركز وصفه على النساء ولباسهن، بقوله: "وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين: فَصِيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر...". ولم يُكمِل وصفه للاحتفال بهذا العيد؛خوفاً من أن يدخل مدخل اللغو، إذ يقول: " ونعوذ بالله من وصفٍ يدخل مدخل اللغو، ويؤدي إلى أباطيل اللهو، ونعوذ به من تقييد، يؤدي إلى تفنيد، أنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة "(٧٨).

هوامش البحث ومصادره:

* طبعت رحلة إبن جبير طبعات عديدة، منها:طبعت ضمن أدب الرحلات، بعنوان: رحلة إبن جبير ،المسماة :تذكرة بالأخبار،عن اتفاقات الأسفار،منشورات دار التراث ،(بيروت ،١٣٨٨هـ/١٩٦٨ م)، وطبعت رحلة إبن جبير وفق العنوان الآتي :
((رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك))،منشورات دار ومكتبة الهلال،طبعة جديدة ومنقحة باشراف لجنة تحقيق التراث،الطبعة الثانية ،(بيروت،١٩٨٦م).

١. بلنسية، كورة ومدينة مشهورة في الأندلس، متصلة بحوزة كورة تدمير، وهي شرق قرطبة، وهي بريه بحريه ذات أشجار وأنهار، وتعرف بـ: مدينة التراب، وتتصل بها مدن تعد في جملتها. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م): معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص٤٣٠.

٢. ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م): تذكرة بالأخبار، عن اتفاقات الأسفار، المعروفة بـ: رحلة ابن جبير، طبعة جديدة، ومنقحة بإشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م، ص ٢٨٤.لمزيد من المعلومات عن حياة ابن جبير، انظر :كراتشكوفسكي ، اغناطيوس يولياسنوفتش ،تاريخ الأدب الجغرافي العربي ،ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص ٢٩٨-٣٠٢ .

٣. رحلة إبن جبير، ص ٢٠٨.

٤. حصن الأكراد: سمي بـ: حصن الأكراد؛ لأن شبل الدولة نصر بن مرداس صاحب حلب اسكن فيه قوما من الأكراد سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م ، فنُسب إليهم ، وقد استولى عليه الإفرنج سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ، وهو حصن منيع يقع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو بين بعلبك وحمص، انظر : الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٦٤، ابن شداد الحلبي ، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم، (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) :الأعلاق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين) تحقيق: سامي الدهان ،دمشق ، ١٩٦٢م، ص ١١٥-١١٦ .

٥. ابن جبير، رحلة، ص٢٠٩،٢٥٢.

٦. أرناط : أحد كبار قادة الإفرنج ، تقلد بارونية الكرك الإفرنجية سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، وقتل سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م إثر أسره في معركة حطين ، لمزيد من المعلومات عن مغامراته ومهاجمته لأرض الإسلام، انظر : غوانمة ، يوسف درويش ،إمارة الكرك الأيوبية ،منشورات بلدية الكرك ، الأردن ، ١٩٨٠م ،ص١١٦-١٥٩.

٧. ابن جبير .رحلة، ص ٣٢.

٨. حصن تبنين:حصن منيع بناه الإفرنج بعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م،يقع بين جبل عوف وبانياس،ابن شداد،تاريخ لبنان،ص١٥٢.

٩. ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٧.

١٠. المصدر نفسه، ص٢٤٨.

١١. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

١٢. المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

١٣. المصدر نفسه، ص ٢٥٣.
١٤. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
١٥. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
١٦. المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
١٧. المصدر نفسه، ص٢٤٧، وسجل ابن جبير هذا العنوان : ذكر مدينة عكة دمرها الله وأعادها .رحلة ص٢٤٩.
١٨. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.راجع هامش (١٤) أعلاه.
١٩. المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
٢٠. هذا تضمين من القرآن الكريم في قوله تعالى : ((... ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)). سورة طه، من الاية :١٢٧.
٢١. أبن جبير ،رحلة، ص ٣٢.
٢٢. عيذاب: مرفأ مصري قديم على ساحل البحر الأحمر قرب الحدود السودانية ، كان من كبار مراكز التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى .الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٧١، أحمد خضر، معالم المدن والقرى العربية ، عمان ، ٢٠٠٤م ،ص١٧٧ .
٢٣. ابن جبير، رحلة، ص ٣٢.
٢٤. المصدر نفسه، ص ٢٤٦.
٢٥. بانياس :بلدة سورية تقع بسفح جبل الشيخ ،قرب نبع بانياس أحد روافد نهر الأردن .أحمد خضر ، معالم المدن والقرى ، ص ٣٢ .
٢٦. ابن جبير. رحلة، ص ٢٣٥.
٢٧. المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
٢٨. المصدر نفسه، ص ٢٥٥-٢٥٦.
٢٩. المصدر نفسه، ص ٢٥١-٢٥٢.
٣٠. المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
٣١. المصدر نفسه، ص ٢٠٦.
٣٢. المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
٣٣. المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
٣٤. لمزيد من المعلومات عن حصار الإفرنج لمدينة صور وسقوطها، انظر: ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، الملقب بـ: عز الدين (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج٩، ص ٢٢٧-٢٢٩.
٣٥. ابن جبير، رحلة، ص ٢٥٢.
٣٦. أيلة(العقبة) مدينة تقع على شاطئ البحر الأحمر على طرف لسانه الشرقي، المعروف بـ: خليج العقبة ، كانت مدينة جليلة اشتهرت منذ أقدم العصور بمتاجرها الكثيرة وأسواقها العامرة ، وكانت مفتاح البحر الأحمر وطريق الحجاج إلى مكة المكرمة ، وقد سقطت بيد الإفرنج سنة ٥١٠هـ /١١١٦م . الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٢٩٢، غوانمة ، إمارة الكرك ، ص٩٩ .
٣٧. قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة تقع على نهر النيل بمحافظة قنا ، ازدهرت في عهد المماليك ، وبها أطلال قديمة من عهد البطالسة ، وكانت قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة.الحموي،معجم البلدان، ج٤، ص٤١٣، أحمد خضر. معالم المدن والقرى ، ص٢٠٨ .
٣٨. ابن جبير، رحلة، ص ٣١-٣٢.
٣٩. حسام الدين لؤلؤ: أحد الحُجاب بمصر، كان من أكابر الأمراء في أيام السلطان صلاح الدين، عرف بأنه أشجع الشجعان وأفرس الفرسان ، شارك في العديد من المعارك ضد الإفرنج، كان متسلم الأسطول الأيوبي، توفي سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م. انظر: أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ،تحقيق: محمد حلمي محمد احمد ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ج٢ ، ص٢٤٠ ؛ ابن كثير، ابو الفدا عماد الدين اسماعيل بن عمر،(ت

٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية ، ١٤ جزء ،تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩م، ج١٣، ص٢٦.

٤٠. ابن جبير، رحلة، ص ٣٢.

٤١. ساحل الحوراء: الحوراء مدينة تقع على ساحل وادي القرى ، وبها آبار عذبة. القلقشندي ،احمد بن علي (ت ٨٢١هـ /١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر ، بيروت، د . ت ، ج٣ ص٢٨٩.

٤٢. لمزيد من المعلومات، انظر:ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١١٧-١١٨.

٤٣. رأس الماء: موضع في كورة البلقاء، والبلقاء محافظة أردنية قاعدتها مدينة السلط ، وبها جبال البلقاء ، وتكثر فيها العيون والينابيع .الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤٨٩؛ أحمد خضر ، معالم المدن والقرى ، ص٤١ .

٤٤. لمزيد من المعلومات انظر: ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٥-٢٤٦. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ١٢٧-١٢٨، ابن شداد الحلبي، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم،(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٩٤، ص ١١٣-١١٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٣٦.

٤٥. ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٥.

٤٦. المصدر نفسه، ص ٢٤٦.

٤٧. المصدر نفسه ،ص٢٥٢-٢٥٣.

٤٨. المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

٤٩. المصدر نفسه، ص٣١-٣٢.

٥٠. المصدر نفسه، ص ٢٤٥-٢٤٦.

٥١. المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

٥٢. المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

٥٣. المصدر نفسه، ص٢٣٥.

٥٤. المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

٥٥. المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

٥٦. الدينار الإفرنجي ،يقول إبن جبير: ((والدينار أربعة وعشرون قيراطاً)).رحلة،ص٢٤٧.

٥٧. ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٨.

٥٨. هذا تضمين من القرآن الكريم في قوله تعالى : ((ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام)).سورة الشورى:٣٢.وقوله تعالى : ((وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام)).سورة الرحمن :٢٤.

٥٩. ابن جبير،رحلة، ص ٢٤٩.

٦٠. ذكر إبن جبير أن مدينة بانياس ثغر بلاد المسلمين ،وهي صغيرة،وكانت بيد الإفرنج ،فاسترجعها نور الدين زنكي -رحمه الله- ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يُشرف عليها حصن للإفرنج ،يسمى :هونين .الرحلة،ص٢٤٦.

وهونين :حصن منيع بناه الإفرنج بعد سنة ٥٠٠هـ /١١٠٦م ، يقع بين جبل عوف وبين بانياس .ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، ص١٥٢ .

٦١. البطحاء: هو التراب السهل في بطن الوادي مما قد جرته السيول ، وقيل البطحاء : مسيل في دقاق الحصى.ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، (ت٧١١هـ/١٣١١م). لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، باب الحاء، فصل الباء، ص ٤١٢-٤١٣.

٦٢. ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٤٦.

٦٣. المصدر نفسه، ص ٢٤٧-٢٤٨.

٦٤. المصدر نفسه، ص ٢٤٨.

٦٥. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

٦٦. المصدر نفسه، ص٢٥٠.

٦٧. المصدر نفسه، ص ٢٥١.

٦٨. المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

٦٩. المصدر نفسه، ص ٢٧١.
٧٠. المصدر نفسه، ص ٢٧٣.
٧١. المصدر نفسه، ص ٢٨٠.
٧٢. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
٧٣. المصدر نفسه، ص٢٦٧.
٧٤. المصدر نفسه، ص ٢٦٧-٢٦٨.
٧٥. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
٧٦. المصدر نفسه، ص ٢٥١.
٧٧. المصدر نفسه، ص ٢٥٨.
٧٨. المصدر نفسه، ص ٢٧٣- ٢٧٤.

Abstract

. The Image of the other in the Arab Islamic Heritage (578-581 A.H/1182-1185 A.D).

The research inquires into the relations with non-Muslims through Ibn Jubayer's journey who is considered as eye witness on the erea This journey stated the Islamic public opinion towards non-Muslims invaders and how the relations inbetween should be.

The journey also revealed how the muslims in the Sham countries (Jordan, Syria and Palestine)as well as Sicily were weak and how the non- Muslims were celebrating as victorious invaders.

The conclusions of the study:

1- Ibn Jubayer had expressed Muslims public opinion towards non- Muslims who had invaded Muslim's countries. He described them as bitter enemies, un-believers and tyrannt people.

This was because of the different images of killing, destroying and, desecrating of the holy places and honor.

This dark image was documented by many other historians such particularly during the crusades. All Muslims were in panic and so they supplicated the Lord to kill them off.

2- Ibn Jubayer described some of the battles between the two sides such as that one which took place in Hijaz in the year 579 Hejri.

He also talked about how non-Muslims treated Muslims as captives and how Muslims in turn treated those non-Muslim captines.

3- The trade was not deeply affected during the war but it continued to prosper between the two sides because of the bad need to it for both sides.

In addition, all trade paths were under the control of non-Muslims such as the share of AKKA and Trabuli.

4- The Muslims were dealt equalty and fairly under the non-Muslims supremacy to the extent that Ibn – Jubayer feared for Muslims to be attracted to their authority. Those ways of treatments were implemented also in Sicily that town people were let to practice their rites as they believed.

١. أرناط : أحد كبار قادة الإفرنج ، تقلد بارونية الكرك الإفرنجية سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، وقتل سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م إثر أسره في معركة حطين ، لمزيد من المعلومات عن مغامراته ومهاجمته لأرض الإسلام، انظر : غوانمة ، يوسف درويش ،إمارة الكرك الأيوبية ،منشورات بلدية الكرك ، الأردن ، ١٩٨٠م ،ص١١٦-١٥٩.
٢. ابن جبير .رحلة، ص ٣٢.
٣. حصن تبنين:حصن منيع بناه الإفرنج بعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م،يقع بين جبل عوف وبانياس،ابن شداد،تاريخ لبنان،ص١٥٢.
٤. ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٧.
٥. المصدر نفسه، ص٢٤٨.
٦. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
٧. المصدر نفسه، ص ٢٥٥.
٨. المصدر نفسه، ص ٢٥٣.
٩. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
١٠. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
١١. المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
١٢. المصدر نفسه، ص٢٤٧، وذكر ابن جبير هذا العنوان : ذكر مدينة عكة دمرها الله وأعادها .رحلة ص٢٤٩.
١٣. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.راجع هامش (١٤) أعلاه.
١٤. المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
١٥. هذا تضمين من القرآن الكريم في قوله تعالى : ((... ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)). سورة طه، من الاية :١٢٧.
١٦. المصدر نفسه، ص ٣٢.
١٧. عيذاب: مرفأ مصري قديم على ساحل البحر الأحمر قرب الحدود السودانية ، كان من كبار مراكز التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى .الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٧١، أحمد خضر، معالم المدن والقرى العربية ، عمان ، ٢٠٠٤م ،ص١٧٧ .
١٨. ابن جبير، رحلة، ص ٣٢.
١٩. المصدر نفسه، ص ٢٤٦.
٢٠. بانياس :بلدة سورية تقع بسفح جبل الشيخ ،قرب نبع بانياس أحد روافد نهر الأردن .احمد خضر ، معالم المدن والقرى ، ص ٣٢ .
٢١. ابن جبير. رحلة، ص ٢٣٥.
٢٢. المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
٢٣. المصدر نفسه، ص ٢٥٥-٢٥٦.

٢٤. المصدر نفسه، ص ٢٥١-٢٥٢.
٢٥. المصدر نفسه، ص ٢٥٤.
٢٦. المصدر نفسه، ص ٢٠٦.
٢٧. المصدر نفسه، ص ٢٠٨.
٢٨. المصدر نفسه، ص ٢٥٢.
٢٩. لمزيد من المعلومات عن حصار الإفرنج لمدينة صور وسقوطها، انظر: ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، الملقب بـ: عز الدين (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، تحقيق: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج٩، ص ٢٢٧-٢٢٩.
٣٠. ابن جبير، رحلة، ص ٢٥٢.
٣١. أيلة(العقبة) مدينة تقع على شاطئ البحر الأحمر على طرف لسانه الشرقي، المعروف بـ: خليج العقبة ، كانت مدينة جليلة اشتهرت منذ أقدم العصور بمتاجرها الكثيرة وأسواقها العامرة ، وكانت مفتاح البحر الأحمر وطريق الحجاج إلى مكة المكرمة ، وقد سقطت بيد الإفرنج سنة ٥١٠هـ /١١١٦م . الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٢٩٢، غوانمة ، إمارة الكرك ، ص٩٩ .
٣٢. قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة تقع على نهر النيل بمحافظة قنا ، ازدهرت في عهد المماليك ، وبها أطلال قديمة من عهد البطالسة ، وكانت قصبة صعيد مصر، بينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً، وأهلها أرباب ثروة واسعة، وهي محط التجار القادمين من عدن وأكثرهم من هذه المدينة.الحموي،معجم البلدان، ج٤، ص٤١٣، أحمد خضر. معالم المدن والقرى ، ص٢٠٨ .
٣٣. ابن جبير، رحلة، ص ٣١-٣٢.
٣٤. حسام الدين لؤلؤ: أحد الحُجاب بمصر، كان من أكابر الأمراء في أيام السلطان صلاح الدين، عرف بأنه أشجع الشجعان وأفرس الفرسان ، شارك في العديد من المعارك ضد الإفرنج، كان متسلم الأسطول الأيوبي، توفي سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م. انظر: أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ،تحقيق: محمد حلمي محمد احمد ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ج٢ ، ص٢٤٠ ؛ ابن كثير، ابو الفدا عماد الدين اسماعيل بن عمر،(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م): البداية والنهاية ، ١٤ جزء ،تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٩م، ج١٣، ص٢٦.
٣٥. ابن جبير، رحلة، ص ٣٢.
٣٦. ساحل الحوراء: الحوراء مدينة تقع على ساحل وادي القرى ، وبها آبار عذبة. القلقشندي ،احمد بن علي (ت ٨٢١هـ /١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، دار الفكر ، بيروت، د . ت ، ج٣ ص٢٨٩.
٣٧. لمزيد من المعلومات، انظر:ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١١٧-١١٨.
٣٨. رأس الماء: موضع في كورة البلقاء، والبلقاء محافظة أردنية قاعدتها مدينة السلط ، وبها جبال البلقاء ، وتكثر فيها العيون والينابيع .الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٤٨٩؛ أحمد خضر ، معالم المدن والقرى ، ص٤١ .
٣٩. لمزيد من المعلومات انظر: ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٥-٢٤٦. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ١٢٧-١٢٨، ابن شداد الحلبي، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم،(ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة،١٩٩٤، ص ١١٣-١١٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص ٣٣٦.
٤٠. ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٥.
٤١. المصدر نفسه، ص ٢٤٦.
٤٢. المصدر نفسه ،ص٢٥٢-٢٥٣.
٤٣. المصدر نفسه، ص ٢٥٣.
٤٤. المصدر نفسه، ص٣١-٣٢.
٤٥. المصدر نفسه، ص ٢٤٥-٢٤٦.

٤٦. المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
٤٧. المصدر نفسه، ص ٢٣٤.
٤٨. المصدر نفسه، ص٢٣٥.
٤٩. المصدر نفسه، ص ٢٥٣.
٥٠. المصدر نفسه، ص ٢٣٥.
٥١. الدينار الإفرنجي ،يقول إبن جبير: ((والدينار أربعة وعشرون قيراطاً)).رحلة،ص٢٤٧.
٥٢. ابن جبير، رحلة، ص ٢٤٨.
٥٣. هذا تضمين من القرآن الكريم في قوله تعالى : ((ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام)).سورة الشورى:٣٢.وقوله تعالى : ((وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام)).سورة الرحمن :٢٤.
٥٤. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
٥٥. ذكر إبن جبير أن مدينة بانياس ثغر بلاد المسلمين ،وهي صغيرة،وكانت بيد الإفرنج ،فاسترجعها نور الدين زنكي- رحمه الله- ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج ،يسمى ، هونين .الرحلة،ص٢٤٦.

وهونين :حصن منيع بناه الإفرنج بعد سنة ٥٠٠هـ /١١٠٦م ، يقع بين جبل عوف وبين بانياس .ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة (تاريخ لبنان والأردن وفلسطين)، ص١٥٢ .

٥٦. البطحاء: هو التراب السهل في بطن الوادي مما قد جرته السيول ، وقيل البطحاء : مسيل في دقاق الحصى.ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري، (ت٧١١هـ/١٣١١م). لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، باب الحاء، فصل الباء، ص ٤١٢-٤١٣.
٥٧. ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٤٦.
٥٨. المصدر نفسه، ص ٢٤٧-٢٨٤.
٥٩. المصدر نفسه، ص ٢٤٨.
٦٠. المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
٦١. المصدر نفسه، ص٢٥٠.
٦٢. المصدر نفسه، ص ٢٥١.
٦٣. المصدر نفسه، ص ٢٦٦.
٦٤. المصدر نفسه، ص ٢٧١.
٦٥. المصدر نفسه، ص ٢٧٣.
٦٦. المصدر نفسه، ص ٢٨٠.
٦٧. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
٦٨. المصدر نفسه، ص٢٦٧.
٦٩. المصدر نفسه، ص ٢٦٧-٢٦٨.
٧٠. المصدر نفسه، ص ٢٦٨.
٧١. المصدر نفسه، ص ٢٥١.
٧٢. المصدر نفسه، ص ٢٥٨.
٧٣. المصدر نفسه، ص ٢٧٣- ٢٧٤.